الفقهاء واثرهم في الحركة الفكرية في العراق خلال عصر الغزو المغولي (٦٥٦هـ - ٧٣٨هـ/١٢٥٨م-١٣٣٨م)

أ.د. قصي أسعد عبد الحميد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الأعظم محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته النجباء الميامين ومن تبعهم بإحسان وأقتفى اثرهم إلى يوم دين.

ذهب بعض المهتمين بتاريخ الفقه وأصوله إلى اعتبار الحقبة الزمنية خلال الغزو المغولي للعراق سنة (٦٥٦هـ | ١٢٥٨ م) والحقب الزمنية التي تلتها على انها حقب مظلمة في التاريخ العربي الإسلامي ، متأثرين ببعض المؤرخين في تعليل ذلك إلى ما أصاب البلاد العربية والإسلامية عامة ، والعراق خاصة ، من فتور وتراخ لاحتلال الغزاة لها ، ولنشوب الاضطرابات فيها وحصول الانقسامات بين اقطارها ، فكانت ضعيفة في بنيتها العسكرية ، متأخرة في حياتها الاجتماعية والثقافية ، نتيجة لذلك ، وبالغ بعضهم في ذلك فجعل الجهل يسيطر عليها ؛ فهي " مظلمة " لعدم وجود العلوم فيها ، واطلق ذلك الحكم ليشمل جميع جوانب الحياة الفكرية ، ومنها الفقه وأصوله ، ولئن صدق ذلك على أوضاع بعض العلوم ، فأن البحث في تاريخ الفقه واصوله لهذه الحقبة الزمنية الطويلة بصورة تفصيلية ، ينفي ذلك ولا يؤيده .

وذلك لأن الفقه في تاريخ الدولة العربية الإسلامية هو شريعة الحياة الإنسانية خلال الحقب الزمنية التي واكبت مسيرتها الحضارية ، إذ يُعد الفقه استنباط الأحكام الشرعية لكل صغيرة وكبيرة تُستجد في تلك الحياة في حادثاتها الكثيرة ، وواقعاتها المتنوعة ، مأخوذة من الأدلة الشرعية .

ومن أجل تسليط الأضواء لمعرفة الفقهاء واثرهم في الحركة الفكرية خلال عصر الغزو المغولي للأمة العربية والإسلامية وعلى الأخص في العراق ، الذي كان يحمل مشعل الثقافة والحضارة والعلوم الإنسانية بأمانة وإخلاص ، حيث كانت بغداد عاصمة الدولة العربية الإسلامية خلال العصور العباسية من سنة (١٣٢هـ | ٧٥٠م) حتى سنة (٦٥٦هـ | ١٢٥٨م) ، تزخر بعلومها وعلمائها .

أعتمد البحث على العديد من المصادر الأولية منها ، كتاب الكامل في التاريخ لمؤلفه علي بن محمد بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠هـ | ١٢٣٣م) ، كتاب منهاج الوصول في علم الأصول لمؤلفه أحمد بن محمد البيضاوي المتوفى سنة (٦٨٥هـ | ١٢٨٦م) ، وكتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمؤلفه محمد بن علي بن الطقطقي المتوفى سنة (٧٠٩هـ | ١٣٠٩م) ، وكتاب الحوادث الجامعة لمؤلفه

كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد بن الفوطي المتوفى سنة (٧٣٣هـ | ١٣٢٣م) ، وكتاب العبر في خبر من غبر لمؤلفه شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ | ١٣٤٨م) ، وكتاب فوات الوفيات لمؤلفه محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة (٧٦٤هـ | ١٣٦٣م) ، وكتاب الوفيات لمؤلفه أحمد بن حسين بن علي بن قنفذ المتوفى سنة (٨٠٧هـ | ١٤٠٤م) ، وكتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لمؤلفه أحمد بن مصلح بن طاش كبرى زاده المتوفى سنة (٩٦٨هـ | ١٥٦١م) ، وغيرها من المصادر الأخرى .

أما أهم المراجع الثانوية التي عول عليها البحث ، كتاب جامع التواريخ لمؤلفه رشيد الدين فضل الله ، وكتاب المدرسة الفقهية للمحدثين لمؤلفه عبد المجيد محمود ، وكتاب تاريخ العراق بين احتلالين لمؤلفه عباس العزاوي ، وكتاب دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية للمؤلفين سعيد عبد الفتاح عاشور و أحمد مختار العبادي وسعد زغلول عبد الحميد ، وكتاب تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود لمؤلفه بدران أبو العنين بدران ، وكتاب العراق في العصر العباسي الأخير لمؤلفه بدري محمد فهد ، وغيرها من المراجع الثانوية الأخرى .

.

نبذة تاريخية عن الغزو المغولي على العراق

كانت الحقبة الزمنية لظهور المغول في منغوليا سنة (٦١٣هـ | ١٢١٦م) توافق الحقبة الزمنية التي كان فيها الخليفة العباسي الناصر لدين الله التي امتدت خلافته من سنة (٥٧٥هـ ــ ٦٢٢هـ | ١١٨٠م ــ ١٢٢٥م) ، ولهذا فأن أهم ما وقع من أحداث تتعلق بتوسع المغول غرباً ، وانسياح هؤلاء البرابرة في الأراضي الإسلامية في عهد زعيمهم جنكيز خان ، وهم يدمرون المدن ويقتلون الأبرياء ويأسرون الأطفال إلى حين وصولهم لغزو مدن العراق منها ، أربيل والموصل سنة (٦١٨هـ | ١٢٢١م) ، وعادت حشود المغول مرة ثانية سنة (٦٢٩هـ | ١٢٣٢م) ، ألا أن محاولاتهم بائت بالفشل ، كذلك تعرضت مدينة الموصل إلى هجوم المغول سنة (٦٣٤هـ | ١٢٣٦م) ، ألا أن موقف الخلافة العباسية غير قوي ولا يجدي نفعاً من دحر الغزاة ، مما أضطر أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى مصالحة المغول بدفع الأموال سنوياً ، وصار يجمع لهم الضرائب من الامارات الإسلامية المجاورة (ابن الأثير ، ١٩٦١م ، ج٩ ، ص ٢٣٠ ، ص ٢٣١) .

غير أن المرحلة الحاسمة التي حددت مصير دار الخلافة العباسية في بغداد كانت في عهد الزعيم المغولي الخان منكو (منقو) للحقبة الزمنية (٦٤٨هـ ــ ٦٦٥هـ | ١٢٥٠م ـ ١٢٥٧م) ومن جاء بعده ، إذ حشد هذا الخان جيشاً كثيفاً وأعطى قيادته إلى أخيه هولاكو، وكان جيشاً يختلف عن الجيوش السابقة عدة وعدداً ، وقد أوصى منكو خان أخاه هولاكو اثناء توديعه بالوصايا الاتية فقال له : " أنك الان على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تخترق حدود توران وتذهب إلى ايران ... وكل من يطيع اوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من نهر جيحون حتى اطراف مملكة مصر خصه بلطفك وعطفك ... أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وابنائه واقاربه وكل من يتعلق به ، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان فخرب القلاع والحصون ، واذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق وازل من طريقك الاكراد ، فاذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً ، أما اذا تكبر وعصى فالحقه بالأخرين من الهالكين ... " (فضل الله ،١٩٦٠م ،ج٢ ، ص ٢٦٧) .

ان المخطط السياسي الذي رسمه الخان منكو إلى هولاكو يوضح بجلاء الاطماع السياسية للمغول في احتلال الأراضي العربية والإسلامية والوصول إلى مصر ، وهو مخطط صريح يبين موقف المغول من الخلافة العباسية .

قاد هولاكو هذا الجيش الجرار سنة (٦٥١هـ | ١٢٥٣م) ، واثناء تقدمه وصلته رسائل وكتب السلاطين والملوك معلنين خضوعهم واذعانهم ، وبعد أن حقق هدفه في دك حصون الإسماعيلية في بلاد فارس سنة (٦٥٤هـ ــ ٦٥٥هـ | ١٢٥٦م ــ ١٢٥٧م) ، لم يبقى أمامه لتنفيذ مشروع أخيه الخان منكو سوى أراضي الخلافة العباسية ، فقد كان الخليفة العباسي آنذاك المستعصم بالله (٦٤٠هـ ــ ٦٥٦هـ | ١٢٤٢م ــ ١٢٥٨م) ، وقد وصف بأنه كان " رجلاً متديناً لين الجانب سهل العريكة سهل الاخلاق ضعيف الوطأة ألا أنه كان مستضعف الرأي ، ضعيف البطش ... وكان أصحابه مستولين عليه وجلهم

جهال من اراذل العوام ... " (ابن الفوطي ، ١٣٥١هـ ، ص ٤٧ ، ص ١١١ ، ص ١١٣) ، ونقل عنه أنه لم يأبه بتقدم هولاكو ضده ، وأن هولاكو سوف لن يجرأ على محاربته (ابن الطقطقي ، ١٩٣٨م ، ص ٢٩٠) .

والواقع أن هولاكو أبتدأ بمراسلة الخليفة العباسي منذ سنة (٦٥٣هـ | ١٢٥٥م) ، إذ طلب منه الاسهام في حملة هولاكو من قلاع الإسماعيلية التي لم يجب عليها الخليفة ، ثم ارسل إليه هولاكو رسالة أخرى سنة (٦٥٥هـ | ١٢٥٧م) على أثر انتصاراته على الإسماعيلية وتصفية قلاعهم ، دعاه فيها إلى هدم حصون مدينة بغداد وأن يسلم العاصمة إلى المغول ، وأعقب هذه الرسائل رسالة ثالثة تضمنت تهديداً ووعيداً للخليفة يدعوه فيها إلى الاستسلام والخضوع وألا فأنه أي (هولاكو) متوجه إليه في جيش " كالنمل والجراد " (القزاز ،١٩٧٠م ، ص٦٣) .

غير أن استجابة الخليفة العباسي إزاء هذه الرسائل لم تكن استجابة قوية ، وذلك بوضع خطة عليها لمواجهة الهجوم المغولي المرتقب أو بتهيئة الفرص الملائمة لرد الخطر المغولي ، ومع كل هذا فانه أشار هولاكو في أحدى رسائله حول ضرورة تهديم الحصون المنيعة في بغداد ، قد تدل على أن الخليفة كان يفكر في مسألة الدفاع ومواجهة الخطر ، ولعل من المهم القول بأن حاشيته ، وبالأخص وزيره مؤيد الدين العلقمي ، قد لعبت دوراً اساسياً سلبياً في تثبيط همة الخليفة وفي عدم التوجه بجدية لمجابهة الغزو المغولي (فهد، ١٩٧٣م ، ص ١٣٤) .

بيل والموصل لتفرض حصار على العاصمة بغداد من الجانب الغربي ، ثم تقدم هولاكو برفقة جيش أخر لغرض الحصار من الجانب الشرقي ، بينما توجه كيتو بوتا وهو أحد قواد هولاكو المشهورين ، فقد اتجه بجيشه عبر لورستان في يلاد فارس والأحواز من الجانب الايسر فضلاً عن أن القوات المغولية تلقت نجدات عسكرية من بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ومن اتابك بلاد فارس (فهد، ١٩٧٣م ، ص ١٣٩) .

يبدو أن الخليفة العباسي المستعصم بالله كان إزاء هذه التحركات العسكرية التي تهدف إلى تطويق بغداد وتضيق الحصار عليها ، مصمماً على الدفاع عن بغداد ، ولعله من الصواب القول بانه ربما كان يتوقع وصول امدادات ومساعدات عسكرية من الامارات الإسلامية الشرقية والغربية ، غير أن مثل تلك الامدادات لم تصل ، حينئذ ارسل قائد جيشه مجاهد الدين ايبك بن الدويدار على رأس قوة عسكرية لمحاولة زحزحة التحشد المغولي ، وبائت هذه الخطة ايضاً بالفشل ، وفي هذه الاثناء شدد هولاكو من حصاره على بغداد ، واستمر هذا الحصار الشديد قرابة الأسبوع ، ولم يستطيع أهالي بغداد الصمود أكثر من ذلك، فضعفت مقاومة الخليفة ، واضطر بعض الأهالي على الاستسلام ، فنجح المغول في فتح حصون المدينة من الجانب الشرقي ، الامر الذي صار فيه الخليفة مهزوزاً فاختار حينئذ التفاوض بهدف تجنب تدمير العاصمة ومنع هولاكو الاستيلاء عليها قهراً (ابن الفوطي ، ١٣٥١هـ ، ص٣١٦) .

وفي الرابع من شهر صفر سنة (٦٥٦هـ | ١٢٥٨م) ، أعطى الخليفة العباسي أوامره إلى قادة جنده الدويدار وسليمان شاه وغيرهم ، بأن يسلموا أنفسهم لتخفيف الوطأة

، وخرجوا معهم الجنود ، فقتلهم هولاكو وأرسلت الرؤوس إلى بدر الدين لؤلؤ ، بعد ذلك خرج الخليفة إلى معسكر هولاكو معلناً استسلامه ، لكن هولاكو الذي كان في البداية قد وعد بالأمان خان وعده وقتله مع أولاده وأقاربه ، واباح للمغول أن يعملوا ما يشاؤون بأهالي بغداد من النساء والرجال والأطفال ، وأن يهدموا معالمها فاستمرت أعمال القتل والنهب والتخريب طيلة الأيام الباقية من شهر صفر (ابن الفوطي ، ١٣٥١هـ ، ص٣١٩) .

وبذلك استشهد أخر خليفة عباسي واسدل الستار عن تاريخ الاسرة العباسية في بغداد ، كما دمرت مدينة بغداد عاصمة الدولة العربية الإسلامية ومهد الحضارة العربية التي لم تذعن في تاريخها إلى غزو أو تسلط ، إذ عملت معاول البرابرة المغول في تهديم كل ما فيها من رموز تعكس ماضيها العريق ، فضلاً عن " وضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر وما زالوا في قتل ونهب واسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدة أربعين يوماً ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد ألا القليل ... " (ابن الفوطي ، ١٣٥١هـ ، ص ٣٢٧) ، أما الأماكن التي سلمت من هجوم المغول " فأنه لم يسلم فيه أحد من كان في الابار والقنوات ، واحرق معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره واستولى الخراب على البلد وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول ... " (ابن كثير ، ١٩٣٢م ،ج١٣، ص٢٠١) .

" ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى ... وقد انكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ... " (ابن كثير ، ١٩٣٢م ، ج١٣ ، ص٢٠٣) .

المعنى اللغوي والاصطلاحي للفقه .

الفقه " الفهم ، وقد فقه الرجل بالكسر فقهاً ، وفلان لا يفقه ولا ينقه ، وافقهته الشيء ، هذا اصله . ثم خص به علم الشريعة ، والعالُم به فقيه ، وقد فقه من باب ظرف أي صار فقيهاً ، وفقهه الله تفقيهاً ، وتفقه إذا تعاطى ذلك ... " (الرازي ، ١٩٨١م ، ص٥٠٩) .

أما الفقه اصطلاحاً : " هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن ادلتها التفصيلية " (البيضاوي ، السنة بلا ، ج١، ص١٩) ، وهو مستمد كما هو معلوم من الكتاب والسنة والاجماع والقياس (البيضاوي ، السنة بلا ، ج١، ص٢٧) ، " وله استمداد من سائر العلوم الشرعية والعربية وفائدته حصول العمل به على الوجه المشروع ... " (ابن قنفذ ، ١٩٧١م ، ص ١٠٨) .

كان الفقه معروفاً في عهد الصحابة (رضى الله عنهم) ، غير انه لم يكن مستقلاً عن مصدريه الرئيسين : الكتاب والسُنة ، وكان الاعتماد فيه في هذا العهد على الفهم والتفهيم للغير ، ثم العمل بمقتضى ذلك ، وقد استمر الاعتماد فيه على هذا في عهد التابعين ايضاً ، ولم يستقل عنهما ألا بعد تدوينه في عهد التدوين في القرن الثاني الهجري ، وعلى هذا فقد كان انتشاره في عهد الصحابة والتابعين مرتبطاً بانتشار

الحديث والتفسير إذ هما مادتاه الرئيسيتان ، فيهما يتأثر ايجاباً وسلباً انتشاراً وانحساراً ، ولما كان التفسير والحديث قد حظيا ازدهاراً وانتشاراً ، فقد حظي هو الاخر بما حظيا به من ذلك ، فنشأت له مدارسه المعروفة به ، ومن اشهرها في هذا العهد مدرستا المدينة والكوفة ، أو الحجاز والعراق في عهد التابعين ، وعرف الكثير منهم ، كفقهاء المدينة السبعة ، وغيرهم من فقهاء الامصار الإسلامية الأخرى في هذا العهد (محمود ، ١٩٧٢م ، ص٢١) .

وقد شهد الفقه رعاية واهتمام خلفاء الدولة العربية الإسلامية خلال العصور العباسية ، فنما الفقه نمواً كبيراً ساعد على التوسع في الاجتهاد من ناحية ، واتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية وانتشار الإسلام من ناحية أخرى ، أما التوسع في الاجتهاد فقد أدى إلى اختلاف وجهات نظر الفقهاء ، وكثرة المناظرات فيما بينهم ، مما ترك أثراً في إثراء الحياة الفكرية بوجه عام وفي نمو التشريع بوجه خاص ، بينما كان اتساع الدولة العربية الإسلامية وازدياد أعداد الداخلين في الإسلام فكان معناه تنوع المواهب وتباين وجهات النظر ، ونشاط الرحلة في طلب العلم بين مشارق الدولة العربية الإسلامية ومغاربها ، فضلاً عن أن فقهاء الإسلام كان لا بد لهم من تحديد موقفهم من تراث الأمم الجديدة التي دخلت في الإسلام بتقاليدها وعاداتها وقوانينها ، ومن الجدير بالذكر أن أهم ما ميز النشاط الفقهي خلال العصور العباسية كان ظهور المذاهب عند أهل السُنة ، فضلاً عن فقه مذهب الشيعة ومذهب الخوارج الذي لا يخلو من اجتهادات واضحة ويعبر عن وجهات نظرهم في كثير من المسائل العامة والخاصة ، أما عن مذاهب أهل السُنة فأشتهر منها أربعة هي : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي (عاشور ، وأخرون ، ١٩٨٦م ، ص٤٥، ص٤٦) .

العراق مَوئل العلماء بعد الغزو المغولي سنة (٦٥٦هـ | ١٢٥٨م)

ظل العراق مَوئل العلماء والأدباء والمؤرخين والفقهاء والمحدثين ومرجع طلاب العلم والمعرفة حتى بعد الغزو المغولي على العراق ،على الرغم من شدة الوقعة وهولهاوفظاعتها على مدينة بغداد نجد الرحلة مستمرة إلى بغداد طلباً لتعلم الفقه وأصوله والرواية ، واستزادة من العلم والآدب في مدارسها ، وعلى ايدي شيوخها ، ومحدثيها ومؤرخيها في اوج هذه النكبة وطغيان موجتها .

كالذي فعله المحدث الحافظ مسند آهل بلاد الشام أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن زين الدين أبو العباس المقدسي الحنبلي المتوفى سنة (٦٦٨هـ | ١٢٧٠م) ، في رحلته إلى الموصل وبغداد (الذهبي ، ١٩٦١م ،ج٥، ص ٢٨٨) ، ونجيب بن عبد اللطيف بن عبد المنعم بن الصقيل أبو الفرج الحراني الحنبلي ، محدث مسند الديار المصرية ، المتوفى سنة (٦٧٢هـ | ١٢٧٤م) ، إذ رحل إلى بغداد والتقى مع رجال العلم والمحدثين فيها (الذهبي ، ١٩٦١م ، ج٥ ، ص ٢٩٨) ، والشيخ شمس الدين ابن العماد المقدسي الحنبلي قاضي القضاة أبو بكر بن إبراهيم، المتوفى سنة (٦٧٦هـ | ١٢٧٨م) الذي رحل إلى بغداد وسكنها وظل يدرس فيها إلى أن تحول إلى مصر في أخريات أيامه (الذهبي ، ١٩٦١م ،ج ٥، ص٣١١) ، وابن الصيرفي المفتي المعمر جمال الدين أبو زكريا يحيى بن ابي منصور بن ابي الفتح بن

رافع الحراني الحنبلي المتوفى سنة (٦٧٨هـ | ١٢٨٠م) (الذهبي ، ١٩٦١م ، ج ٥ ، ص٣٢٢) .

كذلك قاضي القضاة ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن ابي بكر الإربلي الشافعي المتوفى سنة (٦٨١هـ | ١٢٨٣م) ، الذي تفقه في مدينة الموصل (الذهبي ، ١٩٦١م ، ج ٥ ، ص ٢٣٤) ، ومحمد بن عبد المؤمن بن ابي الفتح الصوري شمس الدين أبو عبد الله الصالحي المتوفى سنة (٦٩٠هـ | ١٢٩٢م) (الذهبي ،١٩٦١ م ، ج ٥، ص٣٧٠) ، وابن العديم الصاحب جمال الدين أبو غانم محمد بن الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي الحلبي الكاتب المتوفى سنة (٦٩٤هـ | ١٢٩٦م) (الذهبي ، ١٩٦١م ، ج ٥ ، ص ٣٨٤) ، وغيرهم من علماء العرب والمسلمين فأن أعداهم كبيرة جداً في رحلاتهم العلمية إلى بغداد . بينما ظلت مدارس العراق قائمة تدفع بوجبات طلبتها إلى الحياة العلمية في العراق وفي البلدان العربية.

مسيرة الحركة العلمية الفقهية ومعاهدها

لئن كانت مذاهب الفقه قد توضحت معالمها واستقرت قواعدها في الدولة العربية الإسلامية خلال العصور العباسية ، فصار لكل مذهب قواعده الأصولية التي لا يحيد عنها ، ونجد الحركة الفقهية في العراق ماضية في طريقها ، مؤدية لدورها التشريعي الملائم لكل حادثة مستجدة ، بإيجاد الاحكام الشرعية لها ، استنباطاً من الأدلة الشرعية التي هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والأجماع والقياس أو الاجتهاد وسائر المصادر التشريعية الأخرى في ضوء الضوابط والقواعد الأصولية والفقهية التي وضعها أئمة المذاهب وفصلها تلاميذهم ومن سار على منهجهم ممن أتوا بعدهم (بدران ، ١٩٦٨م ، ج ١ ، ص٢٧) .

ان الفقه لم يتوقف في مسيرته ، انما بقى يساير الحياة المتجددة بحوادثها ، يتفاعل معها، ويؤثر فيها ، واستمرت مدارسه تؤدي مهمتها التشريعية ، فلم تعطل المدارس عموماً وأن اضطربت الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد ، فكانت خدماتها كبرى وفوائدها عظمى في تخرج وجبات كبيرة من الفقهاء والمحدثين والعلماء (بدران ، ١٩٦٨ م ، ج ١ ، ص ٣٣) .

أما ابرز المدارس الدينية التي كانت لها شهرة معروفة في العراق خلال عصر الغزاة المغول الأيلخانيين : في مدينة بغداد كانت المدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية التي بقيت تمارس رسالتها التعليمية في بغداد حتى النصف الأول من القرن السابع الهجري | القرن الثالث عشر الميلادي ، والمدرسة الوفائية ، والمدرسة العلائية ، ومدرسة العاقولي ، والمدرسة السعودية ، والمدرسة البشيرية، والمدرسة المرجانية، ومدرسة الوزير إسماعيل، والمدرسة المغيثية .

كما واصلت المدارس الدينية في مدينة الموصل نشاطها العلمي والتعليمي من أهمها : المدرسة النورية ، والمدرسة النظامية ، والمدرسة البدرية ، أما في مدينة واسط

فتصدرت المدرسة الشرابية ، ومدرسة الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي ، ومدرسة ناصر الدين الصاحبي ، وفي مدينة أربيل كانت هناك مدرسة خفتيان ، هذا إلى جانب بعض المدارس الدينية التي وجدت في مدينتي النجف وكربلاء (العزاوي ،١٩٤٩ م ، ج ١، ص ٤٠٧ ـ ص ٤٣٣) .

ولا شك أن هذه المدارس والمؤسسات كانت مادتها الأساسية الفقه واصوله مما ساعد على استمرار توهج المسيرة الثقافية وتواصل نمو الدراسات الفقهية والاصولية وازدهارها في العراق طيلة هذه الحقبة الزمنية .

ولم يؤثر في سير التعليم في تلك المدارس ضياع الكتب أو احراق المكتبات من قبل الغزاة المغول ، حيث بقيت فيها بقية تسد الحاجة، كما لم يؤثر في سيرها كون الحكومة اجنبية ولا انتقال مركز تلك الحكومة من بغداد إلى أماكن أخرى ، فقد كانت تلك المدارس تقوم بواجبها دون الحاجة إلى مناصرة من الحكومة ، إذ تعتمد تلك المدارس على اوقاف المسلمين ، فلم يتعرض لها الغزاة بل بعد أن دخلوا في الدين الإسلامي ناصروها وايدوا مركزها ، ومع هجرة بعض الفقهاء أيام الواقعة لم يفقد العراق مزاياه بذهابهم ، وانما تمكن في مدة يسيرة من استعادة مجده العلمي والثقافي ، ولم يقف عند مؤسساته القديمة أو بقاياها ، وانما أسس معاهد جديدة (العزاوي ، ١٩٤٩ م ، ج ١ ، ص ٤٤٤) .

كذلك أسهمت المساجد الكثيرة في العراق والربط والخانقاهات التي وقفت عليها الوقوف في مواصلة الجهاد من اجل العلم والتعليم بين فئات المجتمع العراقي ، إذ تخرج منها وجبات كبيرة من الفقهاء والمحدثين والعلماء (الالوسي ، ١٩٢٥ م ، ص٤٧) .

ولعل المتتبع لطبيعة الحركة الفكرية في العراق بعد الغزو المغولي يستطيع ان يلمس جوانب هذه الحركة وابعادها ، إذ من المعروف أن عدداً من رجالات العلم قد نجوا من واقعة بغداد وعادوا إلى متابعة نشاطاتهم المعهودة بعد حقبة قصيرة ، فكانوا بمثابة حلقة الوصل بين الحركة الفكرية في العصر المغولي وبين تلك التي شهدوها في أواخر العصر العباسي ، والأهم من ذلك أن المغول كانوا من الاقوام المتخلفة التي لم يكن لها حضارة عريقة كتلك التي عرفها العراقيون في عصورهم الزاهرة أبان العصور العباسية ، لذلك لم يتدخلوا في الشؤون العلمية والأدبية للعراق ، وتركوا اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والبحث والدراسة والتأليف ، فأستطاع الفكر في العراق بسبب ذلك ان يحتفظ بكثير من مقوماته الأساسية طيلة العصر المغولي (الحمداني ، وأخرون ، ١٩٨٥م ، ج ١١، ص ١٠٦) .

اثر الفقهاء والاصوليين في عصر الغزو المغولي

أ . صيانة التشريع الإسلامي من الاضمحلال .

قام الفقهاء والاصوليين في هذا العصر بصيانة التشريع الإسلامي من الاضمحلال والضياع ، في عصر واجهوا فيه تحديات صعبة ، إذ توالى على الحكم في العراق غزاة

متجبرون طغاة متعسفون ، بعيدون عن الإسلام وأهله ، إذ كانوا أول أمرهم قبائل همجية ، لا يعرفون من الحضارة والتشريع والتمدن ألا شيئاً بدائياً ، ولا همَ لهم ألا بتثبيت حكمهم وتقويته ، فاذا ما اهتموا بعلم أو فن فإنما يكون ذلك لحاجتهم إلى ما يقوي بأسهم ونشر سطوتهم ، كاهتمامهم بالأمور العسكرية وبعض الأمور التطبيقية والموسيقية وغير ذلك (ابن كثير ، ١٩٣٢م ، ج١٠ ، ص٥١) .

فعلى الرغم من تغلب الغزاة العسكري ألا أن الاحكام الشرعية في العراق عموماً تسير في الظاهر وبصورة رسمية على وفق ما يقتضي به الفقه الإسلامي من العمل بموجب ما ينص عليه القرآن الكريم وتوضحه السُنة النبوية الشريفة وتفصله كتب المذاهب الفقهية المختلفة ، طيلة هذه الحقبة الزمنية ، فكان ذلك أمراً يؤثر عن أهل العراق وعلمائهم و مدرسيهم في هذه الحقبة العصيبة ، فألفت الكتب الفقهية الكثيرة التي حفظت التشريعات المأثورة عن الفقهاء السابقين ونقلتها بأمانة إلى الأجيال اللاحقة (ابن كثير ، ١٩٣٢م ، ج ١٠، ص ٦٣) .

ب . مواصلة انماء الفقه واثرائه .

واصل الفقهاء انماء الفقه واثرائه وتوسيع احكامه باستنباط الاحكام الشرعية للحوادث المستجدة ، ذلك أمر طبيعي نتيجة للتطور الحاصل في الحياة ، وفي جزيئاتها التفصيلية يومياً ، فليست الحياة قالباً ثابتاً يدخله الانسان ويخرج منه كما دخل في كل العهود ، بل كل تصرف يقوم به الانسان ، فردياً كان أو جماعياً ، في السر أو في العلن ، مفيداً كان أو مضراً ، صغيراً كان أو كبيراً ، لا بد له من حكم في الشرع ، وعلى ذلك لا بد من استنباط الاحكام الشرعية لهذه التصرفات ، بموصلة الاجتهاد الفقهي ، الذي بدأ به أئمة الفقه في العصور الذهبية (طاش كبرى زادة ، السنة بلا، ج ١ ، ص ١٠٧) .

فكان حصيلة هذا الاجتهاد تأليف كتب ضخمة في الفروع الفقهية الجديدة يضاف إلى ما سبق تأليفه في العصور السابقة ، فقد ألفت في هذا العصر كتب أخرى تعني باستنباط الاحكام للواقعات تسمى عندهم بكتب (الفتاوى) ، أو كتب (الواقعات) ، وهي كثيرة جداً ، قل أن يخلو مفتٍ من المفتين منها ، لكن الاجتهاد ليس مطلقاً ، بل كان مقيداً بقيود كل مذهب وقواعده وأصوله ، وإن لم يعدم بعض الفقهاء آلة الاجتهاد المطلق ، لكنهم قيدوا انفسهم بتلك الأصول المذهبية تأدباً مع أئمتهم ، وقد يخالف أحدهم هؤلاء الأئمة في بعض الأحكام الفرعية (طاش كبرى زادة ، السنة بلا ، ج ١ ، ص١٠٧) .

نماذج من نشاطات الفقهاء العلمية

أولاً : تلخيص الكتب الفقهية المطولة وعمل المتون المختصرة لتسهيل المادة العلمية على الطلبة ومن هذه الكتب ، كتاب (المقدمة في أصول الفقه) لجلال الدين عبد الجبار بن عبد الخالق العكبري المتوفى سنة (٦٨١هـ | ١٢٨٢م) ، وكتاب (البلغة) مختصر كتاب الكافي في مذهب الإمام أحمد بن حنبل تأليف عماد الدين

ابي العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود الواسطي المتوفى سنة (٧١١هـ | ١٣١٠م) ، وكتاب (الوجيز في الفقه) تأليف سراج الدين ابي عبد الله الحسين بن يوسف بن محمد البغدادي الحنفي المتوفى سنة (٧٣٢هـ | ١٣٣١م) ، وكتاب (ادراك الغاية في اختصار الهداية) لأبن عبد الحق الحنبلي المتوفى سنة (٧٣٩هـ | ١٣٣٨م) ، وغيرها من الكتب (الكتبي ، ٢٠٠٠ م ، ج ٣ ،ص ٢٢٧ ، ص ٢٦٣ ، ص ٢٧٨)

ثانياً : نظم الاراجيز الفقهية والاصولية تيسيراً على الطلبة في استظهار المادة العلمية منها، كتاب (الكافية) منظومة في الفرائض ، تأليف محيي الدين صالح بن عبد الله بن جعفر الأسدي الكوفي الحنفي المعروف بأبن الصباغ المتوفى سنة (٧٢٧هـ | ١٣٢٥م) ، وكتاب (نظم الكنز في الفقه) ، وكتاب (نظم السراجية في الفرائض) ، تأليف فخر الدين ابي طالب أحمد بن علي الهمداني المعروف بأبن الفصيح البغدادي المتوفى سنة (٧٥٥هـ | ١٣٥٣م) ، وغيرها من الكتب (الكتبي ، ٢٠٠٠م ، ج ٥ ، ص ٣٧ ، ص ٩٦)

ثالثاً: وضع الشروح المطولة على المتون الفقهية والاصولية ، وهو باب عظيم من أبواب نماء الفقه وأصوله وتوثيق مسائله والاستدلال لها ومن هذه الكتب ، كتاب (الكافي) تأليف نور الدين عبد الرحمن بن عمر العبدلياني المتوفى سنة (٦٨٤هـ | ١٢٨٥م) ، وكتاب (بديع النظام الجامع بين كتابي البزدوي والاحكام) للبديع بن الساعاتي المتوفى سنة (٦٩٤هـ | ١٢٩٥م) ، وكتاب (شرح المحرر في الفقه) لأبن عبد الحق الحنبلي المتوفى سنة (٧٣٩هـ | ١٣٣٨م) ، وغيرها من الكتب (الصفدي ، ١٩٩٩ م ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ، ص٢٠٥ ، ص ٢٦٧)

رابعاً : عمل الموسوعات الفقهية والاصولية ، والمطولات ، بجمع المادة مفصلة معللة من مراجعها في المذهب الواحد وربما تعرضوا للمذاهب الأخرى ، وهو عمل عظيم حفظ التراث الفقهي والاصولي الذي خلفه السابقون ونقل ذلك التراث بأمانة إلى الأجيال اللاحقة مما كان له أثر كبير في التمهيد للتشريعات الحديثة ومن هذه الكتب ، كتاب (ارشاد الطالب إلى معرفة المذاهب) لتاج الدين علي بن انجب البغدادي المعروف بأبن الساعي المتوفى سنة (٦٧٤هـ | ١٢٧٥م) ، وكتاب (الحاوي في فروع الفقه الحنبلي) لنور الدين عبد الرحمن بن عمر العبدلياني المتوفى سنة (٦٨٤هـ | ١٢٨٥م)، وكتاب (الحاوي) لشرف الدين داود بن عبد الله بن كوشيار الحنبلي المتوفى سنة (٦٩٩هـ | ١٣٩٨م) ، وكتب (المنتهى) و (التحرير) و (التبصرة) و (منهاج الكرامة) في الفقه الجعفري للحسن بن الشيخ يوسف بن علي المعروف بأبن المطهر الحلي المتوفى سنة (٧٢٦هـ | ١٣٢٦م) ، وغيرها من الكتب (حاجي خليفة ، السنة بلا ، ج ٢، ص ٧٧، ص ١٥٦، ص ٢٠٢، ص ٢٣٧)

خامساً : زيادة الاهتمام بالقواعد الفقهية وتتبعها ، واستخراجها من كلام الاقدمين ، وتنظيرها وتبويبها ، فقد كان الفقهاء الاقدمون قد تسالوا على بعض الضوابط والمعاني التي تجتمع عندها احكام كثيرة تمثل روح التشريع ومقاصده ، مستخرجة

من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وكلام الفقهاء المتضلعين سميت بالقواعد الفقهية ، ومن هذه الكتب ، كتاب (القواعد الكبرى في فروع الحنابلة) لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الحنبلي المتوفى سنة (٧١٦هـ | ١٣١٦م) ، وغيرها من الكتب (الصفدي ، ١٩٩٩م ، ج٥ ، ص ٨٧ ، ص ٨٨) .

سادساً : العناية بمسائل الخلاف بين الفقهاء ، وقد حظيت تلك الميزة الاهتمام الكبير بين الفقهاء ومن هذه الكتب ، كتاب (مسائل الخلاف) لجلال الدين عبد الجبار بن عبد الخالق بن محمد العكبري المتوفى سنة (٦٨١هـ | ١٢٨٢م) ، وكتاب (الإسعاف في الخلاف) لجمال الدين الحسين بن بدر بن آياز المتوفى سنة (٦٨١هـ | ١٢٨٢م) ، وغيرها من الكتب (ابن العماد الحنبلي ، السنة بلا ، ج ٢، ص ٤٦ ، ص ١٠٨، ص ١٠٩) .

سابعاً : ابتكار طرق جديدة في التأليف وترتيب المادة الفقهية والأصولية وأسلوب عرضها ، فمن الفقهاء المتميزين في الفقه والأصول معاً في هذا العصر الشيخ الإمام مظفر الدين أحمد بن نور الدين علي بن تغلب بن ابي الضياء البعلبكي الأصل المعروف بأبن الساعاتي المتوفى سنة (٦٩٤هـ | ١٢٩٥م) مدرس الفقه الحنفي في المدرسة المستنصرية الذي سكن بغداد ونشأ بها ، وأبوه هو الذي عمل الساعات المشهورة على باب المدرسة المستنصرية ببغداد ، ومن مؤلفات مظفر الدين كتابه (مجمع البحرين وملتقى النهرين) ، كما تميز عبد العزيز بن أحمد البخاري المتوفى سنة (٧٣٠هـ | ١٣٢٩م) في كتابه (كشف الاسرار) ، وغيرهم من الفقهاء المتميزين في مؤلفاتهم الفقهية خلال عصر الغزو المغولي للعراق (ابن العماد الحنبلي ، السنة بلا ، ج ٢ ،ص ١٣٦، ص ١٣٧، ص ١٥٩) .

خلاصة البحث

كان للغزو المغولي على العراق سنة (٦٥٦هـ | ١٢٥٨م) اثره الكبير في تعرض الكثير من المؤسسات العلمية ، مثل المدارس والمساجد وخزائن الكتب إلى الخراب والتدمير، كما استشهد عدد كبير من رجالاتها ، ذلك لأن أهل العراق كان يمتلكون شعور الدفاع عن سيادة الدولة العربية الإسلامية وحاضرتها بغداد ، لذا وقفوا بوجه الغزاة المغول.

وعلى الرغم من الخسائر والأضرار المادية والبشرية التي لحقت بالعراق وعلمائه ، لم تؤد إلى توقف الحركة الفكرية والعلمية في العراق تماماً ، انما استمرت وتواصل العطاء الحضاري للعراق وهو في أصعب الظروف التاريخية .

كما أن المغول كانوا من الأقوام المتخلفة التي لم يكن لها حضارة عريقة كتلك التي عرفها العراقيون في عصورهم الزاهرة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصور العباسية ، لذلك لم يتدخلوا في الشؤون الفكرية والعلمية والأدبية للعراق ، وتركوا اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والبحث والدراسة والتأليف ، فأستطاع الفكر في العراق بسبب ذلك أن يحتفظ بكثير من مقوماته الأساسية طيلة العصر المغولي ، ويمكن أطلاق على تلك الحقبة الزمنية (٦٥٦هـ ــ ٧٣٨هـ | ١٢٥٨م ــ ١٣٣٨م) أنها الحقبة الزمنية المظلومة وليست المظلمة كما يدعيها بعض المؤرخين في ذلك .

ثبت المصادر والمراجع

اولاً : المصادر الأولية

١. ابن الاثير، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ | ١٢٣٣م) ، ١٩٦١م ، الكامل في التاريخ ، ط ١ ، دار الفكر ، بيروت .
٢. البيضاوي ، أحمد بن محمد (ت ٦٨٥هـ | ١٢٨٦م) ، السنة بلا ، منهاج الوصول في علم الاصول ، شرح البدخشي ، مطبعة محمد صبيح وأولاده ، القاهرة .
٣. حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ | ١٦٥٦م) ، السنة بلا ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٤. الذهبي ، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ | ١٣٤٨م) ، ١٩٦١م ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق فؤاد السيد ، مطبعة الحكومة ، الكويت .
٥. الرازي ، محمد بن ابي بكر (ت ٦٦٦هـ | ١٢٦٨م) ، ١٩٨١م ، مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
٦. الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ | ١٣٦٣م) ، ١٩٩٩م ، الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الارنؤوط و تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٧. طاش كبرى زاده ، أحمد بن مصلح (ت ٩٦٨هـ | ١٥٦١م) ، السنة بلا ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
٨. ابن الطقطقي ، محمد بن علي (ت ٧٠٩هـ | ١٣٠٩م) ، ١٩٣٨م ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، مطبعة بابي الحلبي ، القاهرة .
٩. ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ | ١٦٧٨م) ، السنة بلا ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
١٠. ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٣٣هـ | ١٣٢٣م) ، ١٣٥١هـ، الحوادث الجامعة ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة المعارف ، بغداد
١١. ابن قنفذ ، أحمد بن حسين بن علي (ت ٨٠٧هـ | ١٤٠٤م) ، ١٩٧١م ، الوفيات ، تحقيق عادل نويهض ، المكتب التجاري للطباعة ، بيروت
١٢. الكتبي ، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ | ١٣٦٣م) ، ٢٠٠٠م ، فوات الوفيات ، تحقيق علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٣. ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ | ١٣٧٢م) ، ١٩٣٢م ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة .

١٤. **ثانياً | المراجع الثانوية .**

١٥. الألوسي ، محمود شكري ، ١٩٢٥ م ، مساجد بغداد واثارها ، مطبعة الاستقلال ، بغداد .
١٦. بدران ، بدران أبو العنين ، ١٩٦٨ م ، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود ، دار الفكر ، بيروت
١٧. الحمداني ، طارق نافع و علي أحمد الزبيدي و إبراهيم خليل أحمد . ١٩٨٥ م ، حضارة العراق ، ج ١١، الفصل الثاني ، بحث (طبيعة الحركة الفكرية) ، دار الحرية للطباعة ، بغداد .
١٨. عاشور ، سعيد عبد الفتاح و أحمد مختار العبادي و سعد زغلول عبد الحميد ،
١٩. ١٩٨٦م ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، ط ٢ ، مطبعة دار السلاسل ، الكويت .
٢٠. العزاوي ، عباس . ١٩٤٩ م ، تاريخ العراق بين احتلالين ، مطبعة المعارف ، بغداد .
٢١. فضل الله ، رشيد الدين ، ١٩٦٠ م ، جامع التواريخ ، ترجمة نشأت هنداوي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
٢٢. فهد ، بدري محمد ، ١٩٧٣ م ، العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة النهضة ، بغداد .
٢٣. القزاز ، محمد علي ، ١٩٧٠ م ، الحياة الأساسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، مطبعة الآداب ، النجف .
٢٤. محمود ، عبد المجيد .
٢٥. ١٩٧٢م ، المدرسة الفقهية للمحدثين ، مطبعة دار النشر ، القاهرة .